٧ ـ مدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

أما الآية الكبرى الباقية فى قرطبة شاهداً على ما كان للعرب فيها من عمارة وهندسة فهى الجامع الكبير أو المسجد الجامع الذى بناه عبد الرحمن الداخل فى موضع كنيسة للنصارى عوضهم عنها أرضاً واسعة ومالاً كثيراً . وطراز هذا المسجد على غرار المسجد النبوى الذى بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة .

وقد وصفه « لابورد » فى كتابه « صفة أسبانيا » وذكر أن طوله ٦٢٠ قدماً وعرضه ٤٤٠ قدماً . ونقل دوزى عن لابورد هذا الوصف . أما المستشرق بروفنسال صاحب كتاب « إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر » فقد ذكر أن طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً

وفى كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب وصف مفصل لهذا المسجد[1] ، كما أفاض الوصف فيه البيانونى صاحب رحلة الأندلس

وتمتاز كتابات الأمير الجليل بالتحقيق والتدقيق والشرح والتفصيل والتعليق على كل مشهد والتحليل لكل حادثة ؛ فهو لا يكتفى بأبعاد المسجد التى ذكرها دوزى ولابورد والبارون شاك Schack ، ولكنه يسأل دليله فى قرطبة المهندس هرنانديز وأحد الموكلين بالجامع والقيام عليه ، فذكر له أن طول المسجد ١٧٥ متراً وعرضه ١٢٥ متراً وذلك قريب مما ذكره بروفنسال

وعلى كل حال لا تخلو الروايات التاريخية المختلفة من اختلاف بينها على سمة هذا المسجد وأبوابه ومحاريبه وسواريه وثرياته ونقوشه ورقومه وصناعات قبلته وقرجة محرابه وقصيه وعمده

وينقل صاحب نفح الطيب عن الإدريسى كلاماً فى وصف هذا المسجد ، إلا أن النسختين الباريسية والاكسفوردية من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للادريسى جاء فيهما ما يخالف ما رواه صاحب نفح الطيب . ولعل ذلك من أخطاء النسخ وعدم تحرى الدقة فى النقل ، وخاصة فيما يتعلق بذكر الأرقام والإحصاء ، وهذا مشاهد كثيراً لمن يكثر المطالعة فى كتب الأدب والتاريخ

وأعجب ما فى هذا المسجد مئذنته ، وقالوا لم يكن فى مآذن المسلمين ما تعدلها[2] ، فبلغ طولها إلى مكان وقوف المؤذن ٥٤ ذراعاً ، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها فى كل تربيع ١٨ ذراعاً

وقد حول نصارى أسبانيا هذا المسجد إلى كنيسة بعد أن دخلت الأندلس فى حوزة الفرنجة . وما تزال النقوش العربية العجيبة الشبيهة بالمخرَّم (الدنتلاّ) تزين وجهته[3] وعلى الباب الكبير المصفح بالنحاس رسم القوم صليباناً بعد أن تم التحويل إلى كنيسة . وبقيت المئذنة على حالها ؛ إلا أن النواقيس أصبحت ترن فيها بعد الأذان والتكبير ، وما تزال الآيات القرآنية الكريمة مكتوبة فى دائرة القبلة والمحراب بالخط الكوفى[4]

أما القبة الضخمة التى كانت قائمة فوق المسجد على ٣٦٥ عموداً من المرمر ، فقد أزيلت وأزيل معها ١٦٣ عموداً كما أزيل بعض سقف المسجد المحلاة بالأطلية الجميلة والليقة الذهبية ؛ ونهب الفرنسيون فى غارة نابليون الأول على أسبانيا أربعمائة مصباح من الفضة الخالصة[5] . ولا تنس أن جميع خشب هذا المسجد من عيدان شجر الصنوبر الطرطوشى الذى تضرب به الأمثال فى الصلابة والثبات[6]

ويذكر الأدريسى أن بمسجد قرطبة مصحفاً يقال إنه عثمانى ، ويروى صاحب نفح الطيب الخبر عن الأدريسى ، ثم يرويه فى العصر الحديث الأمير شكيب صاحب الحلل السندسية ، ويذكر أنه المصحف الذى خطه بيمينه عثمان بن عفان رضى الله عنه وفيه نقط من دمه ، ولكن البيانونى يناقش هذه الرواية

(١) الحلل السندسية ج ١ ص ١٣٦

(١) تاريخ التمدن الاسلامى من نفح الطيب
(٢) البيانونى
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر نفسه
(٥) الحلل السندسية

فى تحقيق علمى ، ويبقى عقلاً أن ينتقل مصحف عثمان الأصلى من المدينة إلى الأندلس[١]

وإذا ذكرت قرطبة ، ذكرت بجانبها (الزهراء) التى بناها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، ولم يكتمل بناؤها إلا فى عهد ابنه الحكم ؛ وقد شرع الناصر فى بنائها على بعد أربعة أميال من قرطبة مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء[٢]

ويروى المقرى عن ابن الفرضى أنه كمل للناصر بنيان القناة الغربية المصنعة التى أجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر الهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، يدخل الماء إلى جوف الأسد ويخرج من عجزه إلى تلك البركة فى منظر يعجب الناظر ويبهره ... فتسقى من هذا الماء المعجوج رياض القصر وجنانه على رحبها ، ويجوز الفضل من ذلك الماء إلى النهر

ويبدع الواصف لهذا القصر — سواء أكان المقرى أو ابن الفرضى — فى وصف سطحه المرد المشرف على الروضة ووصف مرمره المسنون ، وذهبه المصون ، وعمده ونقوشه وبركه وحياضه وتماثيله . وكان يخصص لبحيرة الزهراء كل يوم أحمال وأوزان من اللحم والخبز المصنوع من الحمص الأسود غذاء لحيتانها وأسماكها ...

وهنا تعمد الرواية التاريخية إلى الإغراق فى المبالغة والمغالاة فى الإحصاء والأرقام مما لا حاجة بى إلى ذكره فى هذا المقام . وهى مبالغة تدل على شىء كثير من الحق ، وتصور لنا هذه القصور والدور فى صورة نستطيع أن نتخيلها لا بحقائقها ولكن بما أضفى عليها من تهويل وإغراق

وكان الرخام يجلب إلى الزهراء من قرطاجنة وأفريقية وتونس[٣] ، واشترك فى وضع الرخام ولصقه على بن جعفر الإسكندرانى . ولعله اجتلب من الإسكندرية خاصة لذلك

وازدهرت « الزهراء » فى عصر الناصر ازدهاراً كاد يضيع من مكان قرطبة ومحلها . وشغل الناصر نفسه بالبناء والعمارة وإتقان القصور ، وزخرفة المصانع فى الزهراء حتى عطل شهود الجمعة ثلاث جمع متواليات ، مما جعل القاضى العادل والواعظ الناصح منذر بن سعيد يعرض بأمير المؤمنين مبتدئاً الخطبة بقوله تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ومذكراً فيها بالدنيا الزائلة ، والحياة الفانية ، والدار الباقية والموت الفاجىء ، والقدر المواتى ، مما أبكى الناصر وأحنقه على منذر لشدة وعظه وغلظة تقريعه[١]

وكان منذر بن سعيد هذا يكثر تعنيف الخليفة الناصر على اهتمامه بالبناء إلى حد كاد ينسيه أمور دينه ، وشئون آخرته . ويروى المقرى عن الحجارى فى كتاب (المسهب فى أخبار المغرب) أن منذراً هذا دخل على الناصر يوماً وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه ، فرد عليه الناصر قائلاً :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

ولا يدرى الرواى إن كان هذا الشعر من نظم الناصر أم مما تمثل به فى هذا المقام

* * *

لقد شهدت قرطبة منذ الفتح العربى إلى أيام المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع الهجرى كثيراً من نواحى الجلال التاريخى ، فبقيت زهاء ثلاثة قرون تتمتع بحكم مستقر ، وملك وطيد وعمارة وبناء ، ويسر ورخاء ؛ إلى أن نكبت فى النصف الأول من القرن الخامس الهجري بالحوادث الجسام وخاصة فى زمن المستعين بالله سليمان وفى دولتيه الثانية مكثتا ست سنين وعشرة أشهر ، وهى تلك المدة التى يصفها ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة ناقلاً عن ابن حيان بقوله[٢] ، وكانت كلها شداداً نكدات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة

(١) رحلة الأندلس

(٢) نفح الطيب وتاريخ التمدن الاسلامى

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦

(١) كتب الأدب ، ومطمح الأنفس مطبعة السعادة ص ٤٢ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦

(٢) الذخيرة لابن بسام القسم الأول ص ٢٥

قبيحات المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتمال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظمن الأمن ، وحلول المخافة

وشهدت قرطبة أيضاً الفتنة فى زمان المستظهر ، وحبسته الشنيمة فى أتون الحمام حين قام الدائرة فى وجهه وزرقوه وهم يسبونه ، فارتد على عقبه وترجل عن فرسه وتجرد من ثيابه حتى بقى فى قميصه واستخفى فى أتون الحمام ففقد شخصه[1] ، ثم أخرج فى قميص مسود بحال قبيحة حيث قتل أمام ابن عمه المستكفى ...

وشهدت قرطبة فى سنة ٤١٤ هـ ثورة[2] لتعويل أهلها على رد الأمر لبنى أمية الذين اغتصب سلطانهم بنو حمود ، وبايعوا المستظهر الأموى الذى قتله حفيد الناصر وجلس على العرش باسم المستكفى بالله — وهو والد ولاده الشاعرة الأندلسية المشهورة — ثم قتل المستكفى وجاء بعده — بعد فتن وحوادث — المعتمد بالله آخر ملوك بنى أمية بالأندلس

* * *

ظلت قرطبة منذ الفتح العربى مقصد أهل العلم وطلاب الأدب ، يفدون إليها انتجاعاً للعلم أو طلباً للحكمة كما كانت بغداد والقاهرة فى المشرق . ويذكر القاضى صاعد الأندلسى أن ابن البيونش الطبيب الحكيم الأندلسى رحل من طليطلة إلى قرطبة لطلب العلم بها[3]

ولم لا تكون قرطبة مقصد العلماء والشداة من أهل الحكمة والمعرفة والنظر والفلسفة ، وقد كان من أهلها الطبيب الفلكى الفيلسوف يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، والرياضى الحكيم أبو القاسم مسلمه المعروف بالمرحيطى . وكان من تلاميذه ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وابن خلدون (غير المؤرخ صاحب المقدمة) . وكان ابن السمح السالف الذكر من أهل غرناطة ، ثم وفد على المرحيطى فى قرطبة لأخذ الرياضة والحكمة عنه[1]

كما كان من أهلها الكرمانى أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، والذى قال عنه تلميذه ابن حيى المهندس الفلكى (أنه ما لقى أحداً يجاريه فى علم الهندسة ولا يشق غباره فى فك غامضها وتبيين مشكلها واستيفاء أجزائها[2]

ومنهم الفيلسوف ابن رشد أبو الوليد الذى اشتغل بالرياضة والفلسفة والطب والتشريح وقال : (من اشتغل بعلم التشريح ازداد بالله إيماناً) ، وترك من الكتب القيمة عدة صالحة نجد ذكرها فى ترجمته فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

كما وفد على قرطبة من أهل المشرق أحمد بن يونس الحرانى وأخوه عمر وغيرهما

وكان ضياع قرطبة — فيما ضاع من الفردوس الإسلامى — سبباً فى إثارة شاعرية كثير من شعراء الرثاء للمالك والدول كابن الأبار القضاعى صاحب كتاب التكملة الذى قتل قعصاً بالرماح سنة ٦٥٨ هـ وأحرقت أشلاؤه والذى يقول فى رثائه لمدينة بلنسية :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة ألسام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكلّ غاربة أحجافُ نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ألا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها (وقرطبة)
ما يذهب النفس أو ما ينزف النَّفَسا

وفى قرطبة يقول صالح بن شريف الرندى المعروف بأبى البقاء وهو خاتمة شعراء الأندلس وأدبائها :

وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شأن ؟
والحق أنه يسأل حيث لا جواب ولا كلام ؛ ولله سبحانه البقاء والدوام .

[الحديث موصول]

محمد عبد الغنى حسن

(١) الذخيرة لابن سام ص ٣٩
(٢) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ الألمانى ١٧ ، ١٨
(٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٨

(١) المصدر نفسه
(٢) المصدر السابق ص ٤٠